اللغة العربية بين اللغات السامية

الدكتور أحمد عبد الرحيم السايح

اللغة التى نزل بها القرءان الكريم ، وهي التى يقال لها العربية الفصحى ، وكذلك سائر لهجات العرب ، هي فروع من مجموعة لغات ، عرفت عند المستشرقين باللغات السامية ، وقد اولع بعض المستشرقين بدرس هذه اللغات ، فالفوا فيها كتبا وابحاثا ، وانشاوا مجلات عدة تفرغت لها ، وما زالوا يسعون فى توسيعها وتنظيمها وتبويبها ، وقد عرفت دراساتهم هذه ، عندهم بالساميات Semitistik وهي تتناول بالدرس ، كل اللغات التى يحشرها علماء الساميات فى مجموعة اللغات السامية ، تتناولها بغض النظر عن وجود اللغة او وجود اللغة او عدم وجودها فى هذا العصر .

فالبحث علم ، والعلوم تبتغي المعرفة ، دون تقيد بزمان او بمكان ، وينفق علماء الساميات مجهودا كبيرا فى المقارنة بين اللغات السامية ، وفى معرفة مميزات كل لغة ، وما بينها وما بين اللغات الاخرى من فروق او تطابق او تشابه .

وترجع تسمية السامية الى عالم الماني اسمه شلوتسر Schlotzer فهو اول من استعمل السامية فى بحوثه فى تاريخ الروم القديم ، ويعود فضل ايجاده الى شجرة انساب الامم الواردة فى التوراة ، والتى ترجع انساب البشر الى ابناء نوح الثلاثة : سام وحام ويافث « سفر التكوين — الاصحاح العاشر » .

فاطلق العالم شلوتر لفظ السامية على جملة شعوب ، رجعت التوراة نسبها الى سام بن نوح ، وشاعت التسمية منذ ذلك الحين ، وخاصة باستعمال المستشرق الالماني ايش هورن Eichhorn وادخاله اياها فى مؤلفاته وبحوثه، واستعملها غيره من العلماء الالمان والانجليز والفرنسيين حتى صارت مصطلح علم عندهم ، ذا مدلول معين مفهوم ، ثم وجد هذا المصطلح سبيله الى الامم الاسيوية والافريقية والقرابة بين اللغات السامية واضحة بينة ، وهي اوضح وامتن واوثق من الروابط التى تربط بين فروع طائفة اللغات المسماة باللغات « الهندو اوروبية » Indoeurpaichen sprachen «او الهندوجرمانية» Indogermanischen sprachen على حد تعبير بعض العلماء وليس الاختلاف بين اللغات السامية القديمة ، يزيد على الاختلاف الكائن بين اللغات الجرمانية .

ولقد ادرك مستشرقوا القرن السابع عشر من امثال : هوتنكر Hottinger (1620–1667م) وبخارت Bochart والبرت سولتنس Albert Schultens (1680–1686) ولود ولف Ludolf وكاسل Edmcastell (1606–1685م) بسهولة الوشائج التى تربط بروابط متينة ما بين تلك اللغات واشاروا اليها ، ونوهوا بصلة القربى التى تجمع شملها ، بل لقد سبقهم الى ذلك علماء عاشوا قبلهم بمئات السنين ، هداهم ذكاؤهم وعلمهم الى اكتشاف تلك الوشائج ، والى التنويه بها .

فقد تحدث عالم يهودي اسمه : يهودا بن قريش Jehuda ben koreish وهو ممن عاشوا فى

اوائل القرن العاشر عن القرابة التي تجمع بين اللغات السامية ، وعن الخصائص اللغوية المشتركة بين تلك الالسن .

كما ابدى هذا العالم اليهودي ملاحظات قيمة عن الاسس اللغوية التي تجمع شمل تلك اللغات .

ولقدماء علماء السامية آراء بنيت على اعتبارات دينية ونفسية ، في قدم لغات ابناء سام ، فتعصبوا للغتهم وحملهم تعصبهم هذا وتقديسهم للغتهم ، على تفضيل لغتهم هذه على سائر لغات ابناء آدم .

وللمستشرقين آراء في اقرب اللغات السامية الى الاصل ، فذهب بعضهم الى ان العبرانية هي اكثر تلك اللغات شبها بالسامية الاولى ، وهي لذلك اقرب بنات سام اليها .

وذهب آخرون الى تقديم لغة بني « ارم » على غيرها ، جاعليها البنت الاولى التي اجتمعت فيها الخصائص السامية الاصلية ، اكثر من اجتماعها في اية لغة اخرى ، ولهذا استحقت في رايهم التكريم والتقدير .

وذهب آخرون الى تقديم العربية على سائر اللغات الاخرى لمحافظتها اكثر من بقية اللغات السامية على الخصائص السامية الاولى وعدم تنصلها منها وتركها لها كالذي نراه من استعمالها للمقاطع القصيرة الصامتة ، ومن كثرة تعدد قواعدها التي زالت بقواعد بقية اللغات ، غير ان هذه الامتيازات والحصانات التي تتمتع بها هذه اللغة يقابلها من جهة اخرى ، مميزات في العربية ، لا نجدها في اللهجات السامية الباقية ، مما يبعث على الظن انها طرات عليها فيما بعد ، وان اللغة العربية قد مرت باطوار تطورت فيها تصيرا .

فما من قاعدة من قواعد اللغات السامية تابعت نموها ، ونضجت في تطورها كما نضجت في اللغة العربية ، بعد ذلك التقدم المتطاول من اقدم العصور. ففي اللغات السامية اعراب ولكنه قاصر غير مطرد ولا متناسق في مواضعه ، ولم يبلغ قط مبلغ القانون الذي نعرف فيه حدود الاطراد وحدود الاستثناء وفي اللغات السامية اشتقاق ، ولكن قوالب المشتقات فيها لم تتميز باوزانها ومعانيها ، كما تميزت مع تطور اللغة العربية .

وفي اللغات السامية حروف لم تعرف في غيرها من العائلات اللغوية ، ولكن لغة من اللغات — سامية كانت او آرية او طورانية — لم تتحرر فيها المخارج بحروفها ولا الحروف بمخارجها كما تحررت في لغة الضاد ، فليس في لغة الضاد حرف ملتبس بين مخرجين ، ولا مخرج ملتبس بين حرفين .

وفي اللغات السامية نحو وصرف ولكنهما واقفان — فوق المنبت — جذورا كالخشب الذي لا يقبل النمو بعدما وصل اليه ، وما من جذر من جذور نحونا او صرفنا لم يتفرع ولم يحتفظ بقوة الحياة فيه .

ويقسم علماء السامية اللغات السامية الى قسمين : لغة سامية شمالية ولغات سامية جنوبية، ويقسم العلماء اللغات السامية الشمالية الى مجموعتين : مجموعة شرقية ، ومجموعة غربية ، ويقصدون بالمجموعة الشرقية : اللغات السامية المتركزة في العراق ، ويقصدون بالمجموعة الغربية : اللغات السامية المتركزة في بلاد الشام ، ولا يقوم هذا التقسيم على اسس لغوية ، وانما هو تقسيم جغرافي محض .

وتتالف مجموعة اللغات السامية الشرقية من اللغات : البابلية والاشورية والاكدية ، اما المجموعة الغربية فتتكون من الكنعانية والاخلافية والفينيقية والبونية والآرامية والعبرانية والسريانية والنبطية والموابية والامورية والاوغاريتية ، ومن لهجات اخرى محلية .

اما المجموعة الجنوبية فتتالف من اللهجات العربية : المعينية والسبالية والقتبانية والحميرية والحبشية (الجعزية) ومن لهجات اخرى محلية .

واما المجموعة الشمالية فهي :

ا — العربية ماقبل الحجارية او ماقبل القرآنية، ومنها اللهجات ، اللحيانية والثمودية والصفوية .

ب : والعربية الحجارية او القرءانية ومنها تفرعت جميع اللهجات المحكية في البلدان العربية وغيرها .

ولقد توصل علماء اللغات السامية ، بعد البحث والدراسة والتنقيب الى خصائص اللغات السامية ووجدوا انها :

1 — تعتمد على الحروف الصامتة Konsonant اكثر من اعتمادها على الاصوات Vokale فنرى ان اغلب كلماتها تتالف من اجتماع ثلاثة احرف صامتة،

اما الاصوات فلا نجد لها حروفا تمثلها في اللغات السامية ، وهي بذلك على عكس اللغات الآرية التي اهتمت بالاصوات ، فدونتها مع الحروف الصامتة.

وقد اضطرت اللغات السامية نتيجة لذلك ، الى الاستزادة من الحروف فزادت في عدادها عن العدد المألوف في اللغات الآرية ، واوجدت لها حروفا للتفخيم والتضخيم والترقيق ، وابراز الاسنان والضغط على الحلق .

2 ـ ويتولد فيها ـ اللغات السامية ـ من تغيير حركات الاحرف الثلاثة الصامتة وتبديلها : معان جديدة ، ولكن من اهم واجبات الاصوات في اللغات السامية تغيير حركات الحروف لتولد معان جديدة ، فالاحرف الثلاثة الصامتة اذن : هي التي تكون مفهوم الكلمة وهيكلها ، ولكن مفاهيم هذه الاصول الثلاثة ، لا تبقى على حالها ، حتى تغيرت حركات هذه الحروف .

3 ـ ومن الممكن احداث معان جديدة في اللغات السامية ، وذلك باضافة زوائد تتالف من حركة او اكثر ، الى الاصول الثلاثة فيتبدل بذلك معنى الاصل .

4 ـ وليس في اللغات السامية ادغام للكلمات، اي وصل كلمة باخرى لتتكون من كلمتين ، كلمة واحدة يكون لها معنى مركب من معنى الكلمتين المستقلتين ، كما في اللغات الآرية ، وما نراه من عد كلمتين مضافتين كلمة واحدة ، تؤدي معنى واحدا ، فان هذا النوع من التركيب بين الكلمتين ، شيء جديد في اللغات السامية ، لم يكن معروفا عند اجدادهم القدماء .

5 ـ وهذا هو سبب ظهور الاعراب في اللغة العربية ، ويذهب العلماء الى أن الاعراب كان موجودا في جميع اللغات السامية ، ثم خف حتى زال من اكثر تلك اللغات ، ونرى له اثرا يدل عليه في العبرانية ، في حالتي المفعول به ، وفي ضمير التبعية ، وفي السريانية والبابلية في ضمير التبعية ، فان هاتين الحالتين ، تدلان على وجود الاعراب في اصولها القديمة .

ويرى العلماء ان الفعل قد تطور في اللغات السامية تطورا خطيرا استغرق قرونا طويلة ، وان ما نعرفه من تقسيم الافعال الى ماض ومضارع وامر، لم يكن معروفا على هذا النحو عند قدماء الساميين. اذن مما سبق توضيحه تبين ان اللغة العربية من اللغات السامية ـ الآرامية والكنعانية والكلدانية والسريانية والاشورية والعبرانية وغيرها ـ التي نشأت فيما يسمى الآن منطقة الشرق الاوسط . وقد ظلت الآراء مضطربة في الاصل المشترك للغات السامية ، والعلم على اي حال لم يعرف الكلمة الاخيرة .

ومما هو جدير بالذكر ان اللغة العربية ، آخر لغة انفصلت عن اللغة الام « السامية » الامر الذي مكنها ان تأخذ ما في السامية من مزايا ، وتتجنب الى حد بعيد ، كثيرا من مزالق ، مما لم يحصل للسريانية والعبرية اللتين سبقتا اللغة العربية في الانفصال .

وقد استفادت اللغة العربية من تطور السريانية والعبرانية ، وما اعتراهما من تحوير وتجديد ، فجاءت بدايتها لا كبداية هاتين اللغتين بمعنى ان بداية العربية جاءت اقرب الى النضج والاكتمال ، من شقيقتيها ، فكانت بحق بداية جديرة بان تقود الى نتيجة هي اكبر نضجا واستقرارا وسعة.

والمراكز التي تبلورت فيها اللغة العربية هي : اليمن والحجاز ، اما في اليمن فكانت العربية اكثر اتصالا بالاكدية والحبشية من اي لغة اخرى ، على ان الهجرات الجنوبية الى الشمال والغرب جعلت عربية اليمن تؤثر الى حد بعيد في هذه المناطق .

واما في الحجاز فقد كان هناك تقارب بين العربية والعبرانية . وهكذا فان هجرات القحطانيين واحتكاكهم بالعدنانيين ساعدت على تركيز لغة مشتركة .

وهجرات اليمنيين الى الشام ، وعدم وجود حكومة عربية ، ورغبة العرب بوجه عام في الحفاظ على المقومات القبلية ، لم يكن من شأنه الا ان يوسع دائرة اللغة العربية ، بما شملته من تعدد المصطلحات للمعنى الواحد ، اذ كان لكثير من القبائل لهجات خاصة ، دون ان يكون التفاهم مع ذلك صعبا بينها ، واذا كان من الصعب الآن ان نعرف متى نشأت اللغة العربية الا اننا لا نعدو الصواب اذا قلنا : انه قد مر اكثر من قرن قبل ظهور الاسلام ، وقبل ان تصل الى درجة الاتقان .

ولم يقتصر العرب على شبه الجزيرة العربية وحدها كموطن لسكناهم ومعيشتهم ، بل هاجر كثير منهم الى البلاد المجاورة لشبه الجزيرة العربية قبل الاسلام بقرون .

ولما كانت هذه البلاد نفسها موطنا لاناس بينهم وبين العرب صلة شديدة القوة ، كالانباط والاشوريين والكلدانيين ، فقد سهل على المهاجرين من شبه الجزيرة الاستقرار بهذه البلاد ، وكونوا في ظل الحكم الروماني والفارسي ، بعض الممالك التي اشتهر منها : مملكة الحيرة في القرن الخامس قبل الميلاد ، ومملكة غسان في القرن السادس قبل الميلاد .

فلم يكن العرب يعيشون منكمشين على انفسهم، بل كانت لهم علاقات وطيدة ، بمدنية الفرس والروم . وهذا ينطبق ايضا على سكان الحجاز ، وعرب الشام والعراق .

ولقد كان لعرب الحجاز تجارة واسعة مع الفرس والرومان ، وبعبارة ادق مع العراق والشام. وهي تعتبر منذ زمن سحيق العاصمة الروحية للعرب . والتجار يحتاجون الى تعلم لغة البلاد ، التي لهم علاقة تجارية ، ومن ثم كان لابد ان تدخل الفاظ كثيرة الى اللغة العربية ، من الفارسية والرومانية ، وهذه الالفاظ التي تطعمت بها العربية معظمها من الالفاظ الحضارية . ولغة العرب ظلت ترتبط بالجاهلية الى حد ما بالمحسوسات التي يقع عليها بصر العربي ، ولكن الذي يثير انتباه الباحث ، هو ان كل ما يرتبط بظواهر الطبيعة في حدود شبه الجزيرة العربية يمثل ثروة لغوية لا تقدر . واذا كانت قريش زعيمة قبائل العرب طالما كانت تتولى امور الكعبة وتسيطر على تجارة الحجاز ، فان لهجتها استطاعت في النهاية ان تصهر كل اللهجات العربية لتخلق منها لغة مشتركة . ونقول لهجة قريش ، ولا نقول لغة لانها لم تكن ذات علم مكتوب .

قال جماعة من الباحثين : ان قريشا افصح العرب ، وبلسانها القرءان الكريم ، وذلك لانها كانت ـ قريش ـ تختار افضل لغات العرب . وهذا الراي منسوب الى قتادة المتوفى سنة 117 هـ

ويقول الفراء المتوفي سنة 207 هـ : « كانت العرب تحضر المواسم في كل عام ، وتحج البيت في الجاهلية ، وقريش تسمع لغات العرب ، فخلت لغتهم من مستبشع اللغات ، ومستقبح الالفاظ » .

وقال احمد بن فارس المتوفي سنة 395 هـ نقلا عن اسماعيل بن ابي عبيدة : « اجمع علماؤنا بكلام الرواة لاشعارهم ، والعلماء بلغاتهم وايامهم ومجالسهم ان قريشا افصح العرب السنة ، واصفاهم لغة ، وذلك ان الله جل ثناؤه اختارهم من جميع العرب واختار منهم نبي الرحمة محمدا، فجعل قطان حرمه، وجيران بيته الحرام وولاته ، فكانت وفود العرب من حجاجها وغيرهم يفدون الى مكة للحج : ويتحاكمون الى قريش في امورهم ، وكانت قريش مع فصاحتها ، وحسن لغاتها ورقة لسانها ، اذا اتتهم الوفود من العرب ، تخيروا من كلامهم واشعارهم ، احسن لغاتهم واصفى كلامهم فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات الى نحائزهم وسلائقهم التي طبعوا عليها ، فصاروا بذلك افصح العرب .

وجاء في مقدمة ابن خلدون : « ان لغة قريش كانت افصح اللغات العربية ، واصرحها لبعدهم عن بلاد العجم من جميع جهاتهم ثم من اكتنفهم من ثقيف وهذيل وخزاعة وبني كنانة وغطفان وبني اسد وبني تميم » .

واما من بعد عنهم من ربيعة ولخم وجذام وغسان واياد وقضاعة وعرب اليمن المجاورين لامم الفرس والروم والحبشة ، فلم تكن لغتهم تامة الملكة بمخالطة الاعاجم وعلى نسبة بعدهم من قريش ، كان الاحتجاج بلغاتهم في الصحة والفساد ، عند اهل الصناعة العربية .

وقد توسع العلماء المحدثون في اثر ما كان « لعكاظ » في تثقيف قريش ، وفي تاثر من كان يحضر فيه من الشعراء والادباء بلغة قريش .

ومن هؤلاء سليمان البستاني ، ونظرية ان القرءان الكريم جاء بلغة قريش ، وجدت لها انصارا من العلماء المعاصرين مثل الدكتور طه حسين ومصطفى صادق الرافعي وعدد كبير من المستشرقين، فلهجة قريش على راي هذا الفريق من العلماء هي افصح اللهجات .

وهناك روايات تصف لهجات اخرى بالفصاحة. قال ابو عمرو بن العلاء : افصح العرب عليها هوازن ، وسفلى تميم .

ووصفت بالفصاحة هذيل وثقيف وجرهم ونصر تعين .

وجاء في لسان العرب لابن منظور : « ان بعض العلماء سئل اي العرب افصح ؟ فقال : نصر قيس . »

ووصفت بالفصاحة قيس وتميم واسد ، والعجز من هوازن الذين يقال لهم عليا هوازن . وهم خمس قبائل منها : سعد بن بكر ، وجشم بن بكر ، ونصر ن معاوية وثقيف .

وقال ابو عبيدة : « واحسب افصح هؤلاء بني سعد بن بكر ، وذلك لقول الرسول انا افصح العرب بيد اني من قريش، واني نشأت في بني سعد بن بكر، وكان مسترضعا فيهم ، وهم الذين يقول فيهم عمرو ابن العلاء افصح العرب عليا هوازن وسفلى تميم . »

وقد عدت هوازن وتميم من افصح القبائل في الاسلام ، ولذلك رحل اليها علماء اللغة للاخذ منها : مثل الخليل والكسائي والازهري وامثالهم من العلماء .

وجاء في كتاب المزهر : « ان ابا نصر الفارابي قال في مقدمة كتابه المسمى : «بالالفاظ والحروف» كانت قريش اجود العرب انتقاء للافصح من الالفاظ ، واسهلها على اللسان عند النطق ، واحسنها مسموعا، وابينها ابانة عما في النفس ، والذين نقلوا اللغة العربية ، وبهم اقتدى ، وعنهم اخذ اللسان العربي من بين القبائل هم : قيس وتميم واسد . فان هؤلاء هم الذين عنهم اكثر ما اخذ ومعظمه ، وعليهم اتكل في الغريب ، وفي الاعراب والتصريف ، ثم هذيل وبعض كنانة ، وبعض الطائيين ، ولم يؤخذ من غيرهم من سائر قبائلهم » .

قال الدكتور جواد علي عضو المجمع العلمي العراقي : « والقائلون بأن العربية الفصحى هي لسان قريش، متأثرون من كون الرسول من قريش ، وبان القرءان الكريم نزل بين قريش . فهو اذن بلغة قريش ، وبما اورده علماء اللغة من انتقاء قريش لادق الالفاظ واعذبها ، وكفصحى سوق « عكاظ » .

اما ان الرسول من قريش فهذا امر مفروغ منه، واما ان القرءان بلسان قريش فمسالة فيها نظر ، وقضية تحتاج الى بحث .

فلو كان القرءان بلسان قريش ، لم سال رجال منهم في تفسير كلمات من كلام الله ؟

ولم لجأ المفسرون الى الاستشهاد بشعر غير قرشي وبلغات قبائل اخرى لتفسير كلمة من كلام الله ؟ ولم ندر الشعر في قريش ؟

وقد ورد ان قريشا كانت اقل العرب شعرا في الجاهلية، فاضطرها ذلك الى ان تكون اكثر العرب انتحالا للشعر في الاسلام .

وورد ايضا : ان العرب كانت تقر لقريش بالتقدم في كل شيء ، الا في الشعر فانها كانت لا تقر لها به حتى كان عمر بن ابي ربيعة فاقرت له الشعراء بالشعر ايضا ولم تنازعها .

ولم استشهد العلماء في اللغة بابيات من الشعر وبكلام الاعراب ، بدلا من الاستشهاد بلغة قريش ؟ ثم من يثبت مقالة من قال : ان قريشا كانت تتخير الكلام فتنتقي منه اعذبه واصفاه ، وليس لهم دليل جاهلي مكتوب ، ولا اثر عتيق يمكن الاعتماد عليه ؟ ثم ما قولنا في حديث طال بحث العلماء فيه وهو : « انزل القرءان على سبعة احرف » وقد قيل ان خمسة منها لعجز هوازن واثنين منها لقريش وخزاعة ، وهو حديث في امره نظر .

على كل حال ينسب الى عبد الله بن عباس ، وليست الرواية عنه من رواية من يجوز الاحتجاج بنقله ، وذلك ان الذي روى عنه ــ ان خمسة منها من لسان العجز من هوازن ــ الكلبي عن ابي صالح ، وان الذي روى عنه ان اللسانين الآخرين لسان قريش وخزاعة ــ قتادة وقتادة لم يلقه ولم يسمع منه (كما في تفسير الطبري ج 1 ص 23) والعجز من هوازن سعد بن بكر ، وجشم ابن بكر ، ونصر بن معاوية ، وثقيف .

قيل نزل القرءان الكريم بلسان قريش ولسان خزاعة لان الدار واحدة .

وورد ايضا ان القرءان نزل بلسان قريش . وقد اجمل الطبري في تفسيره (جـ 1 ص 25) رايه في لغة القرءان بقوله : ان القرءان كله عربي ، وانه نزل بالسن بعض العرب ، دون السن جميعها ، وان قراءة المسلمين اليوم ومصاحفهم التي بين اظهرهم ببعض الالسن التي نزل بها القرءان دون جميعها .

وذهب ابو عبيدة المتوفي سنة 223 هـ الى ان في القرءان لهجات : لهجة قريش ولهجة هذيل ولهجة

هوازن ولهجة يمن ، ولبعضها نصيب كبير فيه . « كما في الاتقان للسيوطي » .

وذكر ابو بكر الواسطي: «ان في القرءان خمسين لهجة ، ثماني لغات دخلت فيه « الاتقان للسيوطي » وذكر ابن النقيب ان القرءان الكريم تضمن مفردات من جميع لهجات القبائل ، وكذلك مفردات من الافريقية والفارسية والحبشية « الاتقان للسيوطي » وجاء ايضا ان الخليفة عثمان بن عفان كان يفضل أن يكون المملي من هذيل ، والكاتب من ثقيف ، وورد انه قال : « اجعلوا المملي من هذيل ، والكاتب من ثقيف ، وان الخليفة عمر بن الخطاب قال : لا يملين في مصاحفنا الا غلمان قريش وثقيف » .

وقال الصاحبي : قال ابو عبيدة : « واحسب افصح هؤلاء بني سعد بن بكر . »

ويتضح للباحث من هذه الاقوال ان الفصاحة والعربية لم تكن خاصة في قريش وان القرءان لم يكن بعربيتها حسب .

قال الدكتور جواد علي : « ان لسيادة لهجة ما من بين لهجات عديدة شروطا منها : نبوغ شاعر او شعراء او كاتب او كتاب في تلك اللهجة ، غاية في البلاغة والفصاحة والصناعة ، فتنتشر آثارهم بين الناس ، ويحاكيهم غيرهم في ذلك ، ويكون ذلك سببا في انتشار اللهجة وتفوقها ، كما حدث عند اليونان في الشعر القصصي الذي بلغ كماله في الياذة (هوميروس) المنظومة بلغة اليونانيين في القرن التاسع قبل الميلاد ، وفي الشعر الغنائي المنظوم بلغة الايوليين احدى اللهجات اليونانية ، وذلك لسبق الايوليين غيرهم بهذا الفن ، فلم يقل بعدهم سائر اليونان هذا النوع من القريض الا بهذه اللهجة ، وكالذي حدث ايضا في الشعر الخورسي المنظوم باللهجة الدورية عند عموم اليونان .

ومن اسباب تفوق لهجة على اخرى ، سبقها في مضمار التاليف او اتخاذها لغة رسمية في دوائر حكومة قوية لها كيان وسلطان ، او جعلها لغة دينية او تاليف الكتب الدينية بها ، كما حدث في الالمانية ، حيث صارت اللهجة التي ترجم بها (مارتن لوثر) الكتاب المقدس ، في القرن السادس عشر ، لغة الادب نظرا لمحاكاة الشعراء والادباء اياه في استعمالها للتعبير عن آرائهم ومنها ، السيادة السياسية والاقتصادية وامثال ذلك من عوامل بسطها العلماء المتبحرون في اللغات ، ولم يرد في كل الروايات ان قريشا كانت تمتلك هذه الاسباب ليجوز لنا القول بان لغتها كانت لغة الادب والشعر في جزيرة العرب قبل الاسلام . الى هنا وضح كلام الدكتور جواد علي عضو المجمع العلمي العراقي . واني لارى ان لغة قريش لها من المقومات ، ما جعلها تصهر في بوتقتها اللهجات الاخرى . وقد تفاعلت مع اللهجات الاخرى تفاعلا افاد العربية ومن الواضح ان المتكلمين بالعربية لم يكونوا طائفة واحدة ، رغم انتسابهم الى العرب ، ولكنهم كانوا قبائل متفرقة في انحاء الجزيرة العربية، وقد اضطرت هذه القبائل الى الاتصال ببعضها لتبادل المنافع من تجارة وغيرها ، فاجتمعت في الاسواق ، واتصلت عند شن الغارات والحروب .

وهذه الاتصالات اوجدت سبيلا لتصارع اللهجات ، فباد الضعيف وانتشر القوي ، وما زالت اللهجات تتصارع حتى كتب للقرشية آخر الامر ، التغلب لاسباب هيات لها سبيل الرسوخ والنصر . ومن هذه السبل :

1 ـ النفوذ الديني :

فقد كان لقريش مكانة دينية ممتازة لقيامهم بسدانة البيت الحرام الذي يفد اليه العرب من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ويقدموا قرابينهم ، ويقدسوا آلهتهم . لهذا كان القرشيون موضع تقديس العرب جميعا .

2 ـ النفوذ التجاري :

وقد كان للقرشيين سلطان اقتصادي كبير . فقد كان زمام التجارة بايديهم فيجلبون البضائع من الشام صيفا ، ومن اليمن شتاء ، ويوزعونها على القبائل العربية ، فاصبحوا قبلة انظار العرب جميعا، وقد حدثنا كتاب الله بذلك فقال : « لايلاف قريش ايلافهم رحلة الشتاء والصيف » .

3 ـ النفوذ السياسي :

وقد تهيا لقريش مكانة سامية بفضل ما اوتوا به من نفوذ ديني واقتصادي وما حبوا به من حضارة، فاصبح لهم نفوذ عند العرب جميعا ويرشد الى هذا ما قاله ابو بكر الصديق في رده على الانصار الذين طمعوا في الخلافة بعد وفاة النبي ـ عليه السلام ـ « لا تدين العرب الا لهذا الحي من قريش فلا تنفسوا على اخوانكم » .

4 ـ **النفوذ اللغوي** : ان القرشيين لم يقفوا حجر عثرة في سبيل تقدم لغتهم بل عملوا على نموها ، فاضافوا اليها ، ما هي في مسيس الحاجة اليه ، وما رأوه اخف على اسماعهم ، وايسر على السنتهم .

فهذه العوامل قد هيات للقرشية سبيل الفوز والنجاح ومكنتها من ان تصبح لغة العرب جميعا ، وقد اكتسبت من هذا الصراع اموراً عظيمة ، هيات لها سبيل التقدم والرقي .

فانت ترى ان قريشا ، انفردت بعلو الكلمة ، وسمة الزعامة ، وسعة الجاه ، ووفرة السلطان وتمام النفوذ الروحي والاقتصادي بين العرب ، لما تواتى لهم من ثقافة وخبرة وحنكة .

والذى ورث من لغة الحميريين ليس كثير التمييز عن لغة قريش ، سواء في التصريف ام في الاعراب أم في الاسلوب ، بل ان اكثره ظاهر في اختلاف بعض الالفاظ عن بعض في الدلالة على المعاني المتحدة ، فلفظ « انطى » في لهجة الحميريين معناه « اعطى » عند القرشيين ، و « الكتع » عند الاولين هو « الدئب » عند الآخرين ، و «الشناتر» عند حمير هي: «الاصابع» عند قريش ، و«سامدون» في لغة حمير هي : «الغناء» في لهجة قريش ، الى غير ذلك مما تجد له نظيرا في لهجات مضر «كالسدفة» فهي «الظلمة» عند تميم و«الضوء» في لغة قريش .

ولما كان الخلاف بين الحميرية والقرشية غير متشعب، ذابت لغة الحميريين كسائر اللغات الاخرى في لغة قريش التي صارت ذات غلبة وسيادة على سائر اللغات وقد استفادت القرشية من صراعها مع اللهجات العربية الاخرى ، اموراً كثيرة اهمها :

1 ـ انها استفادت كثيرا من المفردات والاساليب ولاسيما التي كانت تنقصها فتنوعت فنون القول ، وتمكنت من التعبير عن جميع الاغراض ، التي كانت تنقصها ، وغنيت بالمترادف والمشترك والمتضاد ، وغيرها من الامور التي كانت كبيرة الاثر في نمو اللغة وسعتها .

2 ـ وانها صارت اللغة القومية للعرب جميعا، لان اللغات او اللهجات اذا تصارعت وكتب لاحداها الفوز ، اتجه الجميع الى التكلم بها ولذلك صارت اللهجة القرشية لغة الشعراء في اشعارهم والخطباء في خطبهم ، ويؤكد ذلك ان العرب على اختلاف قبائلهم ، ورد الينا شعرهم بلغة واحدة، الا في القليل النادر ، وهو الذى كان عليه الاعتماد في تعرف البقية من لهجاتهم .

وانت ترى بعد هذا الاعراب ان احتكاك اللهجات العربية ادى في نهاية الامر الى تزعم اللهجة القرشية وصرعها جميع اللهجات ، الا انه قد بقي لكل قبيل بعض الالفاظ التي كانوا يستعملونها في مخاطبتهم ، وفي النادر من اشعارهم والذى يرشدنا الى هذه البقية من اللهجات مصدران :

المصدر الاول :

القراءات التي رويت في القرءان الكريم عن ائمة القراء الموثوق بهم ، والذين نقلت الينا قراءاتهم من طرق ، لا يتسرب الشك اليها .

وقد روي عن ابي بن كعب ، قال : دخلت المسجد اصلي فدخل رجل فافتتح النحل فقرا ، فخالفني في القراءة ، فلما انفتل من صلاته قلت : من اقراك ؟ قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم جاء رجل فقام يصلي ، فقرا وافتتح فخالفني وخالف صاحبي، فلما انفتل من صلاته ، قلت من اقراك ؟ قال رسول الله ، فدخل قلبي من الشك والتكذيب اشد مما كان في الجاهلية ، فاخذت بايديهما ، وانطلقت بهما الى النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ فقلت استقرىء هذين فاستقرأ احدهما ، وقال : احسنت ، فدخل قلبي من الشك والتكذيب اشد مما كنت في الجاهلية ، ثم استقرأ الآخر وقال : احسنت ، فدخل صدري من الشك والتكذيب اشد مما كنت في الجاهلية ، فضرب رسول الله صدري بيده ، وقال: اعيذك بالله يا ابي من الشك ، ثم قال : ان جبريل ـ عليه السلام ـ اتاني فقال : ان ربك ـ عز وجل ـ يأمرك ان تقرأ القرءان على حرف واحد ، فقلت : اللهم خفف عن امتي ، ثم عاد ، فقال : ان ربك ـ عز وجل ـ يأمرك ان تقرأ القرءان على حرفين ، فقلت : اللهم خفف عن امتي ، ثم عاد ، وقال : ان ربك ـ عز وجل ـ يأمرك ان تقرأ القرءان على سبعة احرف .

فهذا الحديث صريح في اجازة النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ القراءات التي هي مصدر لاختلاف اللهجات .

والمصدر الثاني : ما رواه الثقات في كتب النحو والادب واللغة والتاريخ ، من آثار تلك اللهجات ،

ومما يذكر استطرادا بهذا الصدد ، ان الخلاف بين اللهجات متعدد النواحي ، متشعب الجهات ، فتارة يكون الخلاف ناشئا عن اختلاف الحروف واخرى من تباين الحركات ، وثالثة من اختلاف حركات الاعراب والبناء وآونة يتعلق بهيئة المنطق ، وبالنظر الى ما وصلنا من لهجات العرب يمكننا ان نحصر مظاهر اختلاف اللهجات فيما يلي :

1 ـ الابدال : ويشمل ابدال الحروف من الحروف والحركات من الحركات .

2 ـ التصحيح والاعلال .

3 ـ الاختلاف في الاعراب .

4 ـ التردد بين الاعراب والبناء .

5 ـ الزيادة والنقصان .

6 ـ الفك والادغام .

7 ـ هيئة النطق وهي تشمل الامالة والترقيق والتفخيم والاخفاء والاظهار .

8 ـ تقديم بعض حروف الكلمة على بعض ، وهو القلب المكاني .

8 ـ دلالة اللفظ على معنيين ، وهو المشترك والتضاد .

10 ـ دلالة عدة الفاظ على معنى واحد وهو المترادف .

ومما سبق بيانه ، يتضح ان قريشا كانت تحتكر التجارة الخارجية في شبه الجزيرة العربية وكانت تقطن مكة ، ومما لا يحتاج الى دليل ان مكة من الزمان القديم العاصمة الروحية للعرب ، اذ لا يكون هذا كافيا لان تتفوق لهجة قريش على غيرها من اللهجات آنذاك .

واذا كنا وصلنا الى هذا الحد من الكتابة عن اللهجات العربية ، وعرفنا آراء علماء العربية فيها ، فلا نرى مانعا من ذكر آراء كوكبة الاستشراق الذين ادلوا بآرائهم لمرضاة العلم في ذاته ، دون تعصب أو سطحية .

فالمستشرق « نولدكه » يرى : ان الفروق بين اللهجات في الاقسام الرئيسية من جزيرة العرب ، مثل الحجاز ونجد مناطق البادية المتاخمة للفرات ، لم تكن كبيرة ، وان اللهجة الفصحى مبنية على جميع هذه اللهجات .

ويعتقد العلامة « فويدي » : ان اللغة الفصحى هي مزيج من لهجات تكلم بها اهل نجد والمناطق المجاورة لها ، ولكنها ليست لهجة معينة لقبيلة معينة .

ويقول « نلينو » : ان اللغة الفصحى وهي لغة الشعر الجاهلي ، هي لغة القبائل التي اشتهرت بالبراعة في نظم القصيد ، والتي تردد اليها النحاة وعلماء اللغة في الاسلام ، ليتعلموا من اهلها صحة النطق بالحروف او المعاني الغريبة والشواهد لقواعد النحو ، وهي قبائل « معد » التي جمع ملوك «كندة» كلمتها قبل منتصف القرن الخامس للميلاد .

ويرى ان اللهجة الفصحى تولدت من احدى اللهجات النجدية، وتهذبت في مملكة كندة وفي ايامها، فصارت اللغة الادبية السائدة بين العرب . وذكر « فيشر » ان العربية الفصحى هي لهجة معينة . ولكن فيشر لم يعين اسم هذه اللهجة .

اما «هارتمن» و«نولرس» فخلاصة رايهما : ان العربية الفصحى هي لهجة اعراب نجد واليمامة ، غير ان الشعراء ادخلوا عليها تغييرات عديدة ، اما الاجزاء الباقية من الجزيرة ، فكانت تتكلم لهجات اخرى .

ومن راي « بروكلمن » و « ويتزشتاين » وآخرين : ان اللهجة العربية الفصحى لم يتكلم بها على الشكل الذي نعرفه . ولم يشرح « بروكلمن » علاقة هذه اللهجة ببقية اللهجات .

والعالم «لندبرج» يقول : « ان قواعد اللهجة العربية الفصحى ، من وضع الشعراء ، فمن شعرهم استخرجت القواعد ، ومن قصائدهم استنبطت . »

هذا مجمل آراء كوكبة من كواكب العلم والاستشراق والدراسات الواسعة ، ومع انها آراء تبدو مختلفة ، الا انها جميعها تعطي صورة صادقة لفصاحة القبائل العربية المنتشرة في طول الجزيرة العربية وعرضها .

ومما يدعو الى الانتباه ان العلماء لم يتفقوا على اول لاهج بالعربية ، ولكن باحثي اللغات افترقوا شيعا وطوائف ، حسب ما بدا لهم من اساسها الحدس والتخمين .

فيرى فريق من باحثي اللغات : ان العربية نشأت على يد القبائل البائدة التى لم يشملها الفناء والهلاك كطسم وجديس ، ويستند اصحاب هذه الفكرة الى التوافق بين النقوش المعثور عليها ، والاصوات التى امتازت بها السامية كالضاد والغين .

ويتجه آخرون الى ان يعرب بن قحطان هو اول متكلم بالعربية ، ويؤيدهم كثيرون محتجين ، بأن العرب البائدة ، قد ذهبت ادراج الرياح فليس لها اثر محقق سوى المروي من قصصها فى الكتب السماوية ، والمنقوش على الآثار المعثور عليها . وهذا الرأي منسوب الى اليمانيين الذين يعتقدون انهم اصل العرب . ويتجه جماعة الى ان اسماعيل هو اول متكلم بالعربية مستدلين بما ورد فى الاثر من ان اول من فتق لسانه بالعربية اسماعيل .

وجاء فى المزهر ، ان اول من تكلم بالعربية ، ونسي لسان ابيه هو اسماعيل ـ عليه السلام ـ

ويرى بعض العلماء : ان العربية هي لغة العرب العاربة ، ومنها انتقلت الى القحطانيين فالعدنانيين .

وقال فريق : ان لسان جميع من كان فى سفينة نوح هو السريانية ، الا ان واحدا منهم هو جرهم ، فكان لسانه لسان العرب الاول ، فلما خرجوا من السفينة تزوج « ارم بن سام » بعض بنات جرهم ، ومنهم صار اللسان العربي فى ولده : عوص ابي عاد، وعبيل ، وجاثر ابي ثمود ، وجديس .

تلك آراء العلماء وقد عززت بالادلة التى وضحت لاصحابها ، ومن النظر البين فيها تتجه النفس الى ان العربية اخذت من بقايا القبائل البائدة ، فليس هلاكها مؤثرا فى لغتها ، فهناك قبائل بقيت كطسم وجديس ، ولانه من غير المعقول ان يكون « يعرب » اول ناطق بها ، لانه وفد من العراق متكلما بلغته التى تفاهم بها فى وطنه الذى ارتحل عنه ، وهي غير عربية ، فترك « يعرب » للغته التى تعودها منذ نعومة اظفاره ، ليتكلم بلسان جديد هو : العربية مناف للمألوف ، ومخالف للمعروف .

كذلك لا يمكن القول ، بأن اسماعيل العبري اول لاهج بها ، بناء على اثر نبوي فالطعن فى هذا الحديث بناء على حال اسماعيل قوي ، ولكننا نقبله ونفسره بما يساير الواقع ، ويتفق مع الحاصل ، وهو ان اسماعيل اول ناطق بالعربية من العدنانيين بعد تعلمها من مخالطة الجراهمة ـ التى هي فرع قحطاني ـ عند نزوله مع امه ببطن مكة سنة الف وسبعمائة قبل الميلاد ، وعلى ذلك لا تنافي بين الاثر والواقع .

والقحطانيون وقد تلقوا لغتهم من بقايا العرب البائدة ، لم يكن لهم لسان موحد فى شتى العصور لان العوامل اللغوية فعلت فعلها فتفرعت الى لهجات:

اللهجة المعينية : وهي منسوبة الى المعنيين الذين اسسوا اقدم مملكة فى بلاد اليمن ، وقد اتخذوا « قرنا » عاصمة لملكهم فى القرن الثامن قبل الميلاد غالبا .

اللهجة السبئية : وتنسب الى السبئيين الذين قامت دولتهم القرية على انقاض الدولة المعينية، وقد اتخذوا «مارب» عاصمة لهم .

اللهجة الحميرية : وهي منسوبة الى الحميريين الذين نازعوا السبئيين الحكم امدا طويلا.

اللهجة القتبانية : وهي منسوبة لقبائل قتبان التى نشأت مملكتها فى المنطقة الساحلية شمال «عدن» .

اللهجة الحضرمية: وهي منسوبة الى قبائل (حضرموت) وقد انشأوا مملكة قوية نازعت « سبأ » السلطان .

فالقحطانيون تلقوا هذه اللغة ، عن بقايا القبائل العربية البائدة ، وقد توسعوا فيها حسب مطالب الحياة ، واخذها العدنانيون عنهم ، لجوارهم لفرع قحطاني وهو «جرهم» .

فالعربية عريقة فى القدم والثبات ، لها تاريخ ممتد طويل فى الزمن الماضي وان التاريخ الطويل ليعطي اللغة فاعلية اكثر ، وتفاعلا اسلم ، وتبلورا وتناسقا مع مقتضيات الزمان ، ومتطلبات الحياة .

ومصادر اللغة العربية الاساسية : يمكن ان نستقيها من القرآن الكريم والشعر والامثال والقصص .

اما القرآن فضلا عن كونه احدث تغييرا جذريا فى التفكير العربي فى جميع مناحي الحياة ، فقد كان مصدرا عظيما للغة التى اغناها بمصطلحات كثيرة ، وباسلوب جديد ، وكثير من هذه المصطلحات والاساليب يرتبط ارتباطا وثيقا بالدين والعقائد والعبادات والمعاملات .

وكان النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ يقدم هذا الاسلوب ـ المنزل عليه في صورة وحي ـ كاخبار او جواب عن اسئلة يثيرها العرب « يسالونك عن الاهلة ـ يسالونك عن الشهر الحرام ـ ويسالونك ماذا ينفقون ـ يتساءلون عن النبأ العظيم » الى آخر تلك الاسئلة .

وفي عهد الرسول لم تثر اسئلة كثيرة حول نصوص القرءان ، فكان على الصحاب ان ياخذوا على انفسهم نقل هذه المسؤولية ، فلم يقدم على ذلك الا قليل منهم كعكرمة ، وابن عباس الذين تصديا للجواب على كثير من الاسئلة التي اثارها المستفسرون .

واثار الخلاف في قراءة القرءان مشكلة ظهور عدة روايات ، تنوقلت عن جماعة معينة من القراء ، واحتفظت الآيات بوجه عام بصورتها الحقيقية ، وانما كان الخلاف يتعلق بالحركات ، لا بجوهر اللفظ نفسه ، ومهما يكن من شيء فان القرءان كان مرجعا اساسيا لرواة اللغة الذين اعتمدوه كنقطة استقرار واستنتاج ، وقد حفظ عدد من الاستعمالات التي لم تعد اليوم جارية في الاسلوب العربي مثل : « ان هذان لساحران ـ قال رب ارجعون ـ والارض فرشناها ـ فقد صغت قلوبكما » .

وكل هذه الاستعمالات وغيرها كان يستشهد للتدليل على صحة ما يقابله من غير القرآن .

ولم يحظ الحديث بمثل هذه الحظوة ، ومع ذلك فتوجد تراكيب مشهورة وردت قصدا او ضمنا في احاديث النبي ، حتى قيل انها لم تسمع من غيره من قبل ، ومنها : « مات حتف انفه ـ الحرب خدعة ـ لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » .

واما الشعر : فمصدر بالغ الاهمية للغة ، حتى قيل انه لولا الشعر لضاع نصف اللغة ، وانما ظل الشعر مصدرا للغة لسهولة حفظه وروايته ، ولانه لا يحتمل المكذوب والمدسوس ، مثلما يحتمله النثر ، واذا كان الشعر لم يسلم من التحريف والانتحال ، فان بعض الادباء عمدوا الى جمع كثير منه كتابة في وقت متاخر نسبيا ، كابي تمام «الحماسة» وابي فرج الاصفهاني « الاغاني » والذين تصدوا من جماع اللغة للتاليف في هذا الباب ، عمدوا الى الاستشهاد بالشعر ، كما فعل النحاة ايضا ، وهكذا استشهدوا بالشطر التالي على ان « عزب » تطلق على الذكر والانثى .

يا من يدل عزبا على عزب

كما استشهدوا في مخاطبة الواحد بلفظ التثنية بقول سويد بن كراع :

فان تزجراني يابن عفان انزجر
وان تدعاني احم عرضا ممنعا

وقس على هذه الامثلة ، وقد كان ابن عباس يقول : اذا قرائم شيئا من كتاب لم تعرفوه ، فاطلبوه في اشعار العرب ، لان الشعر ديوان العرب .

والشعر : هو الكلام الموزون على روي واحد المقوم على حذو واحد لا يخالف بعضه بعضا في الوزن والروي ، وسموه شعرا ، لانه الفطنة بالغوامض من الاسباب ، وسموا الشاعر شاعرا : لانه كان يفطن لما لا يفطن له غيره ، من معاني الكلام واوزانه ، وتاليفه واحكامه وتثقيفه ، فكان لا يفوته من هذه الاسباب كلها شيء قال عنترة :

هل غادر الشعراء من متردم
ام هل عرفت الدار بعد توهم

يعني ان الشعراء لم يدعوا شيئا ، الا وفطنوا له ، يقال شعرت بالشيء اذا فطنت له ، قال الكسائي في قوله تعالى : « ولكن لا تشعرون » شعرت بالشيء شعرا وشعورا ، وبعضهم يقول مشعورة ، وقال ابو سعيد : هو شعرة فحذفوا الهاء : قال وهو مثل : الدرية والفطنة ، وهو على وزن « فعلة » قال : وقيل شاعر لانه يشعر بالشيء ويفطن له ، قال : ومنه قولهم : « ليت شعري » اي ليتني اشعر به .

وسموا الكلمات المنظومة المؤلف بعضها الى بعض « قافية » وجمعها « قواف » قال النابغة :

قوافي كالسلام اذا استمرت
فليس يرد مذهبها التظني

يعنون بالقوافي : الكلام الذي يقفو بعضه بعضا على مثال واحد ، ثم سموا اجتماع القوافي « قصيدة » قال جرير :

في ليلتين اذا حدوت قصيدة
بلغت عمان وطيء الاجبال

يعني بالقصيدة : الكلمة التي ملئت بالمعاني ، وكثرت فيها الالفاظ المستحسنة يقال ناقة قصيدة اي ممتلئة كثيرة اللحم سمينة ، فكانهم شبهوا القصيدة بذلك ، قال الشاعر :

قطعت وصاحبي سرح كناز
كركن الرهن ذعلبة قصيد

فاي لغات الامم لها كلفة العرب هذه الاسباب اللطيفة ، والمناقب الشريفة التي خصت بها ، واي امة جعلت للغتها هذه الحوزة ، واتخذت لها هذه الدواوين، واحتاطت لها هذا الاحتياط .

فالعرب تكلموا بالشعر الرصين، المحكم المعاني، الموزون بالعروض ، المقوم بالانحاء ، من غير ان يعرفوا عروضا او نحوا ، ايدهم الله بقيله ، والهمهم وزنه ، حتى ابرزوه بالفاظ حسنة ، ومعان متقنة ، وقوافٍ موزنة ، ومصاريع مستوية ، فرواه اهل اللب والادب منهم ، وقبله اهل الشرف والحسب منهم ، وجعلوا رويه في ذكر الاحساب والمآثر ، ومدح الملوك والعظماء ، والنبلاء من الناس ، وفي ذكر المثالب والسباب ، وهجاء اهل الضغائن والاحقاد ، وفي ذكر الوقائع والحروب .

ونشر كل شاعر محاسن قبيلته ومفاخرها ، ومساويء اهل الشنآن والبغضاء لهم ، واستفتحوا كلامهم بذكر النسيب ، وبسطوه بصفات الديار والقفار والنجع والامطار ، ونعت الخيل والابل والوحش ، وغير ذلك .

فتقيدت بالشعر الالفاظ الغريبة والمعاني اللطيفة ، وحفظ الرواة عنهم كثيرا من ذلك الشعر، ودونوه ورواه السلف للخلف ، واعتنى به الخلف عن السلف .

واما الامثال : فتعتبر كذلك من المصادر الاصيلة للغة العربية ، وللعرب منها الشيء الكثير ، وهي ذات اهمية بالغة من حيث ارتباطها اجتماعيا وادبيا بحياة العرب كما ان كثيرا منها يصلح تطبيقه على غير العرب من الامم والافراد كقولهم : « الحرب خدعة ـ ومعظم النار من مستصغر الشرر ـ ولا يطاع لقصير امر » . وقد اخذت كثير من دول أوربا عددا من الامثال العربية .

واما القصص : فوراء كل مثل قصة ، حفظت كتب الامثال منها وخصوصا كتاب «مجمع الامثال» للميداني (517 هـ)، والقصص تمثل بدورها نماذج صادقة من تفكير العرب وآدابهم واهميتها اللغوية تتمثل فيما شملته من غريب اللفظ ، وجمال الاسلوب ، واحسن مرجع لها هو كتاب « الامالي » لابي علي القالي ، وكتاب « الاغاني » لابي فرج الاصفهاني ، وكتاب « البيان والتبيين » للجاحظ .

وخلاصة القول : ان القرآن والشعر والامثال والقصص ، كل منها قد ادى دورا بارزا في حفظ اللغة وتقويمها ، الا ان جميع الدراسات اللغوية البتت في وضوح ان سبب نشأة اللغة العربية ونموها واتساعها وشمولها وتبلورها وتطورها ، هو : القرءان الكريم قبل غيره ، وذلك ان الفاظا كثيرة ، يرددها القرءان كانت مثار اسئلة المسلمين منذ عهد الرسول وكان بين هذه الالفاظ ، ما هو غير عربي ، ثم كان المعنى اللغوي يتعين فهمه ، قبل الاقدام على التاويل الشرعي ، فنشأ من ذلك العناية بتفسير القرآن الكريم .

واختلفت الروايات في قراءة القرءان ، فنشأ عن ذلك علم القراءات التي كانت ذات ارتباط وثيق بالنحو ، واخيرا فان وضع قواعد النحو كان ضروريا لحفظ آيات القرءان على صورتها الاصلية ، وبقطع النظر عن تعدد القراءات . ولحسن الحظ فقد كان العرب يفطنون الى ضرورة تدوين اكثر ما يمكن من الاشياء التي يخشون على ضياعها بسرعة ، كما فعلوا في تدوين المصحف مثلا ، فقد بدأوا في ذلك منذ عهد ابي بكر الصديق ، وهذا يدل على ان العرب كان فيهم عدد ممن يحسن الكتابة والقراءة ، بل يمكن ان يفهم من تعليم اسرى مكة لصبيان المدينة اثر معركة بدر الكبرى ، ان الكتابة والقراءة كانتا تنتشران بمكة التي عرفتهما قبل المدينة ، ومن ثم فتدوين العلوم المتصلة بالقرءان ، قد سبق تدوين غيرها من العلوم .

وبالرغم من ان الكتابة كادت تكون مجهولة ، في باقي اجزاء شبه الجزيرة العربية ، فان الالفاظ اللغوية التي حفظتها القصائد تشكل ثروة هائلة. ولقد كانت لغة الشعر كما يقول : « بروكلمان » اشبه ما يكون بنهر جداوله هي اللهجات المحلية للقبائل ، والتي اشتقت من العين نفسها .

واذا كان للقرءان الفضل في انتشار اللغة العربية بشكل لم تكن تعرفه لغة اخرى في العالم ، فان الموارد الاخرى التي استقى منها الرواة ودارسوا اللغة الاولون قد ادت بدورها خدمة للعربية لا تنكر.

وقد ظلت اللغة العربية على متانتها فى عهد الرسول ، وفى ايام الخلفاء الراشدين ، وما سجل من الهفوات واللحن ، على بعض العرب آنذاك لم يكن شيئا يذكر بالقياس الى ما بلغته العربية من فوضى فيما بعد .

والى البصريين يرجع الفضل بطبيعة الحال فى تحقيق اللغة، وتمييز صحيحها من فاسدها ، وغريبها من مستعملها ، وان كان الكوفيون قد ساهموا بدورهم فى هذا الميدان الا ان مؤلفاتهم على العموم، لم يتح لها تاثير كبير من حيث الذيوع والانتشار .

مراجع هذا البحث

1 ـ « تاريخ العرب قبل الاسلام » للدكتور جواد علي جـ 1 القسم اللغوي ـ مطبوعات المجمع العلمي العراقي .
2 ـ كتاب « فقه اللغة » للصباحي طبعة المؤيد 1910 م
3 ـ كتاب « غرائب القرءان » للنيسابوري .
4 ـ مقدمة ابن خلدون ـ طبعة كتاب التحرير 1386 هـ القاهرة .
5 ـ كتاب « الخصائص » لابن جنى جـ 1 مطبعة الهلال بالفجالة مصر 1913 م .
6 ـ كتاب « لسان العرب » لابن منظور طبع دار الصاوي 1355 هـ مصر .
7 ـ كتاب « المحتسب فى القراءات » لابن جنى طبع المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية 1386 هـ القاهرة .
8 ـ كتاب « المقتضب » للمبرد الجزء الاول والثاني طبع المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية 1386 القاهرة .
9 ـ كتاب « تحرير التحبير » لابن ابي الاصبع ـ طبع المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية 1383 هـ القاهرة .
10 ـ كتاب «الاغاني» لابي فرج الاصفهاني طبع دار التحرير للطبع والنشر 1384 هـ القاهرة .
11 ـ كتاب « تاريخ الادب الجاهلي » لعميد الادب العربي الدكتور طه حسين . القاهرة .
12 ـ كتاب « تاريخ ادب العرب » لمصطفى صادق الرافعي .
13 ـ كتاب « الثقافة الاسلامية والحياة المعاصرة ـ مجموعة بحوث القيت بجامعة برنستون بامريكا سنة 1953 م طبع مؤسسة فرانكلين .
14 ـ كتاب « الاتقان فى علوم القرءان » الجزء الاول للسيوطي . طبع الحلبي بمصر 1965 م.
15 ـ كتاب « اللهجات العربية » لابراهيم نجا ـ مطبعة السعادة بمصر 1965 م .
16 ـ كتاب « الزينة فى الكلمات الاسلامية »للرازي جـ 1 الطبعة الثانية ـ دار الكتاب العربي
17 ـ مجلة «اللسان العربي» العدد الثاني ـ الرباط ـ المغرب .
18 ـ كتاب « اشتات مجتمعات » لعباس العقاد ـ الطبعة الثانية ـ دار المعارف بمصر .
19 ـ مجلة « الرواد » العدد الثاني من المجلد الرابع ـ 1968 م ليبيا .
20 ـ مجلة «اللغات» المجلد الاول ، تصدر عن مركزاللغات بتونس 1964 م .
21 ـ مجلة « المعرفة » المجلد الاول تصدر بالمملكة العربية السعودية 1379 هـ .